البعد الصوفي في شعر الشابي

من دلالة العناوين إلى دلالة النصوص

د.قريش بن علي

جامعة سيدي بلعباس

إنّ من المواضيع التي لم تسترع انتباه بعض النقاد الدراسين ما يختص به شعر الشابي من بعد صوفي طغت مظاهره الرئيسية في بعض قصائده التي نظمها في المرحلة الثانية من مراحل حياته، على قصرها[1] واتسمت هذه القصائد بالوعي والنضج الفنيين، فجاءت تعبيرا عن موافق ورؤى آمن بهما الشابي، كما اتسمت هذه القصائد من حيث الدلالة بالتسامي الروحي، فالشاعر أبو القاسم الشابي كما الشعراء الرومانتيكيون يحلمون بمعانقة العالم العلوى الذي يخلّصهم من رتابة العالم الأرضي الذي ضاقوا به ضرعاً/ولئن كان البعد الصوفي في شعر الشابي من آثار الرومانتيكية التي آمن بها الشابي تجربة في الحياة ومنهجا، فقد كان الإسلام ، حضارة، وثقافة وفكرا رافدا آخر من روافد البعد الصوفي في شعر الشابي كما أن **للبتارات** الفلسفية والفكرية والعقائدية التي عرفها العالم ما بين الحربين العالميتين (1914-1918م/1939-1945)أثرا في زعزعة كثير من القيم، فقد هزت هاتان الحريان العالميتان النفوس هزآعنيفا وخلخلت كثيرا من القيم الروحية الأخلاقية والفكرية، ونّبهت الشاعر العربي على، وجه العموم ، والشاعر الرومانتيكي على وجه الخصوص ، إلى هذه الهوّة العميقة التي بدأت تتسع بين الإنسان/ المادة ،والإنسان / الروح، فهيّج ذلك كله إحساس الشعراء العرب الرومانتيكيين بأن العالم من حولهم أصبحت تهدده التيارات الفلسفية والمذاهب الفكرية الغربية المادية ،فانتشرت الحيرة والقلق، وانتاب هؤلاء الشعراء شعور قوي بالإقتراب((أمام حضارة غربية في اسستها الفكرية ومظاهرها المادية))[2]

كما خلق هذا الشعور القوي في نفوس الشعراء إحساسا ووعيا كبيرين بأن كيانهم الروحي مهدّد وعليه أن يستجيبوا لهذا الإحساس بالإستجابة لنداء الروح ، فكان هذا البعد الصوفي الذي إرتسمت ملامحه الكبرى في شعرهم دليلا قويّا على شوقهم الكبير للتسامي بالروح ، تخليصا لها من المادة.

وقد أفصح الشاعر أبو القاسم الشابي عن ذلك الشوق من خلال ملفوظ النّصوص، بدءا بالعناوين التي وضعها لقصائده، وهذا ينمّ عن توجه مبكر لدى الشابي في التعبير عن ذلك البعد الصوفي ، والشعراء أكثر الناس قدرة على التعبير عن كل الظواهر والأبعاد.

1- دلالة العناوين:

يكشف الشابي للقارئ مضامين نصوصه الشعرية من خلال عناوين القصائد ،ويحيله إلى مركزية الدلالة في بناء العناوين ،فإذا أُمعن القارئ النظر في بعض العناوين انكشف له مظهر مهم من مظاهر شعره ذي البعد الصوفي ،وتسترعى انتباه القارئ ثلاثة عناوين ،أراد لها الشابي أن تكون عناوين رامزة لكل ما له دلالة صوفية .

- **القصيدة الأولى:** (صلوات في هيكل الحّب)[3].

تأهل هذا العنوان للدلالة على جملة من المعاني المجردة أو المعاني التي تنزع إلى التجريد والعنوان ثلاثة كلمات صلوات + هيكل + حبّ.

و (صلوات): جمع مفرده (صلاة)والصلاة في اللغة : الدعاء والدعاء يكون من الفضاء الماديّ إلى الفضاء الروحي ومن الفضاء الضيق إلى الفضاء الرحب، ومن الإنسان ، تحاصره العوالم الأرضية إلى من له القدرة على الإرتفاع بالإنسان من الضيق والأرضية.

وكلمة (صلوات) تحمل دلالة روحية عميقة وطاقة إيحائية كبيرة ، تضخمت هذه الدلالة بالكلمة (هيكل) واتسع هذا التضخم في الدلالة باللفظ(الحبّ)و(هيكل الحبّ) ، فاكتملت إذن دلالة العنوان ، فرسم العنوان صورة شاعر رومانتيكي في شوق كبير إلى تطهير الذات والتسامي بها وبالكون من خلال روحانية المكان وطهره وصفائه، فقد أسند الشابي للحبّ من الدلالة ،بالحقيقة وبالمجاز ، فالحبّ أصبح حبّا ذى بعد صوفيّ لا ينشده إلاّ الأصفياء من بني النشر / من الشعراء ومن غير الشعراء، والتّصوّف أخلاق قبل أن يكون شيئا آخر قال النّوري:((ليس التصوف برسوم ولا علوم ، ولكنها اخلاق)) [4] ، فبالحبّ الصوفي يتجرّد الشاعر من أخلاق الإنسان / المادة، ويتطهر بروح، الحبيب، والعنوان نفسه إحالة إلى دلالات صوفية، لحال شعورية يعيشها الشابي ، ويتأسى بها، وبها يطلب الفرج ، فتتنزّل عليه السكينة من السماء ، ويعمر قلبه الصفاء ، ويغمره الحبّ

الحُبُّ شُعْلَةُ نُورٍ ساحرٍ، هَبَطَتْ *** منَ السَّماءِ، فكانتْ ساطعَ الفَلَقِ[5]

القصيدة الثانية: (أراكِ) [6]

يمكن أن بفهم العنوان بالصيغة التي ورد بها على أنه استدراج من الشاعر للقارئ لتخييل البعد الدلالي الذي يحيل إليها الفعل (أرى) جاء بعدها كاف مكسورة(كِ) حدّد نوعية العلاقة التي تربط الشاعر بالمخاطب ،والمخاطب –هنا- هو المرأة المنشودة التي ارتسمت في وحدان الشابي والعنوان لا يكشف طبيعة هذه الرؤيا التي يرى بها الشابي المرأة والعالم ، ولكنّه يشير إلى أن الشابي في مواجهة مع تنافضان المجتمع أو تجربة الفرد / الروحي في مواجهة رؤيا العالم /المادي ويمكن أن يكون تقدير العنوان (أراك) على النحو الآتي :

(أِراكِ روحا) وهذا التقدير جاء استنباطا من الفهم الرومانتيكي الذي يرى المرأة روحا جميلة، نزلت من السماء إلى الأرض وهذه الرؤيا ليست أمرا غريبا ،فالشاعر الرومانتيكي على العموم، ((يقدّس عاطفة الحبّ [الروحي] ويكفر بكل ما يفق في سبيلها من تقاليد المجتمع وعاداته...))[7].

وهو فضيلة أو طريق إلى الفضيلة))[8].

وعلى الرغم من أن العنوان السابق لا يقول كل ما سيبوح به النص الشعري نفسه ،وهذا أمر طبيعي ولكنه يحيل القارئ إلى حقيقة الرؤيا التي تشكلت في وعي الشابي وفي لا وعيه ((والرؤيا هي أداة المعرفة الصوفية في تحصلّها الخياليّ))[9] ، فالشابي يحاول بهذه الرؤيا الروحية للمرأة أن يفضح رؤيا المجتمع المادي التي تشكلت من العادات والتقاليد العتيقة، ويؤهب المجتمع لمعرفة صوفية ،تصبح المرآة فيه كائنا روحيا ، نزل من السماء؟.

- **القصيدة الثالثة(الغاب)**

طالع هذه القصيدة :

بيْتٌ، بَنَتْه ليَ الحياةُ من الشذَى والظلّ، والأَضْواءِ، والأنغامِ)[10]

البيت بيوت(بيت الله)و (بيت النبوة) و (بيت الحكمة) و (الغاب بيت).

هذا العنوان يوحى تركيبه إلى أن الشابي ينزع إلى كل بيت يحتضن الروح ، قرآنا كريما وصلوات وأورادا، وتسابيح، وتأملات ، وإلهاما ، وشعرا ،وحّبا .

وراهن المعرفة الصوفية يقول : كيف يصبح العاب/ البيت وحدة أساسية في قصيدة المعرفة الصوفية أو القصيدة ذات البعد الصوفي؟

إن من المعلوم بالضرورة من الثقافة الرومانتيكية أن ((هذه النشوة بين أحضان الطبيعة (الغاب) هي طابع الرومانتيكيين جميعا وذلك أن مبتدئهم حبّ الخلوة واعتزال الناس، لأن المجتمعات مباءة...)) ، ((حبّ الطبيعة والهيام بها ... عند الرومانتيكيين عامة ، ينبوع الشعر ومصدر الحياة الخلقية الصحيحة))[11].

واختيار الشابي (الغاب) عنوانا لقصيدة طويلة ،جاء على قدر كبير من الوعي الفني بمضامين العناوين التي بضعها لقصائده ،فهو (العنوان – الغاب) يوحى منذ البداية بأن الشاعر أبا القاسم الشابي لم يستطع أن يكون منتميا إلى المجتمعات (المباءة ، التي تغيب الإنسان الروح) .

الروح والغاب هو في نهاية الأمر((المرحلة الموافقة للفطرة والبداءة))[12]

والشابي حين ينزع إلى الإستغراق في الحديث عن الروح إنما يفعل ذلك في لحظة إبداع شعري، صيانة للروح الرومانتيكية مما يمكن أن يهددها من المجتمع المادي الذي لا يعطي للروح مكانة.

إن العناوين الثلاثة السابقة كلّها (صلوات في هيكل الحبّ) و(إراك) و(الغاب) تفضى إلى دلالة وفكرة واحدة هي أن الشابي يتصور الوجود تصورا وجوديّا.

ومهما كان الأمر فإن هذه العناوين ترسم نصوصا هي قمة ما انتهى إليه الإبداع الشعري عند الشابي وهو إبداع تولد عن حال شعرية عميقة لشاعر رومانتيكي يباشر فعل الحالة الصوفية.

2- **دلالة النصوص** :

وبالرجوع إلى مضاعين نصوص تلك العناوين يلاحظ القارئ كثافة المعاني المجرّدة التي تضخمّت بين انفتاح النصّ بدءا بالطالع ، (**البيت الأول من النصّ**) ومسافة انغلاقه ، ليكتمل التضخم في البيت الأخير من

النص وهذا يشير كما سنرى – إلى أن زمن الحديث عن الروح من خلال الحديث عن الحب وعن الطبيعة ،اتسع بصفة تسترعى الإنتباه.

3- رمز المرأة / الحبّ

ما به قوام الحبّ الروحي عند الشابي ومع الشعراء الرومانتيكيين أن يسمو الشاعر الحق بالحبيب إلى المقام الذي يجعل صورة ذلك الحبيب تجمع بين الحبّ الروحي المنشود والفضيلة، فقد تزاحمت هذه الدلالات في قصيدة (صلوات في هيكل الحب)، وتوزعت، بصفة متوازنة بين أبيات القصيدة ، وهذا ما رشحها لأن تكون دالة على تصوّر روحي للوجود عند الشابي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك كما يدل ذلك على ان الشابي كان يعيش حالة صوفيّة مستمرة استغرقت كل زمن الإبداع ، غذّاه خيال الشابي الفسيح ، فجاءت القصيدة ، تبرز تلك الحالة الصوفية على النحو الآتي:

عذْبةٌ أنتِ كالطّفولة، كالأحلامِ *** كاللّحنِ، كالصباحِ الجديدِ

كالسَّماء الضَّحُوكِ كالليلةِ القمراءِ *** كالورد، كابتسام الوليدِ

يا لها من طهارةٍ، تبعثُ التقديـ *** ـسَ في مهجة الشَّقيِّ العنيدِ.!))[13]

فقد قيد الشابي صورة الحبيب الرمز بصفات حسية تنزع إلى التجر يد وترك لحظة التجلي الشعوري، تتصاعد بشكل عفوي ومتوازن مع طبيعية النّص من حيث هو فيض من المعاني فالحبيب في الأبيات السابقة (عذب الطفولة) والطفولة مرحلة شعورية تنزع إلى الفطرة والعفوية والبراءة والصفاء والطّهر والحبيب يشبه (السماء الضحوك)و(الليلة القمراء) وابتسامته تشبه (ابتسام الوليد)،فالسماء منبع الوحي، تتأثث بها النجوم، وتسكنها الملائكة الأطهار ، وينزل منها الغيث ،ويصعد إليها الكلم الطيب، وتعمرها الأرواح الخيّرة، ولأن هذه الصورة (السماء الضحوك) مشحونة بالمعاني المجرّدة ، فقد افتتح بها الشابي البيت الثاني، وترك الصفات التي تنزع إلى التجريد تأخذ طريقها إلى التجريد بشكل تصاعدي ، فجاءت الأبيات الآتية ،ترسم صورة الحبيب الذي تسامى به الشابي:

أيُّ شيء تُراكِ؟ هلى أنتِ "فينيسُ" *** تَهادتْ بين الورى مِنْ جديدِ

أم ملاكُ الفردوس جاء إلى الأر *** ضِ ليُحيي روحَ السَّلامِ العهيدِ!

أنتِ..، ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ *** عبقريٌّ من فنّ هذا الوجودِ

فيكِ ما فيه من غموضٍ وعُمقٍ *** وجمالٍ مُقَدّسٍ معبودِ

فالشعور بوجود الحبيب / الروح بدأ يتلبّس الشاعر ابا القاسم الشابي ، وبدأ الشعور بالتجلّي الوجودي بأخذ سبيله إلى كيان الشاعر كله ،وبدأ الشابي يتأهب إلى معاقة الحبيب الذي أصبح فوق المعاني المحسوسة، فيقول له في خطاب مباشر:

أنتِ روحُ الرَّبيعِ، تختالُ في *** الدنيا فتهتزُّ رائعاتُ الورودِ

ويقول في تجل شعوري حادّ بسمو الحبيب:

أنت أنشودةُ الأناشيد، غناكِ *** إله الغناءِ، ربُّ القصيدِ

إن البيتين السابقين يجسدانثنائيةرمزية غنية بالدلالات ذات البعد لصوفي هما الروح والموسيقى:

(أنتِ روحُ الرَّبيعِ)+ (أنت أنشودةُ الأناشيد).

فالروح تنتمي إلى العالم العلوي، وبها يحدث التناسق والإنسجام والتناغم بين عالم المحسوسات وعالم المجردات، وهي من جنس علم العدد والفلك والموسيقى ، ولذلك فهي تنتمي إلى مجال مقدّس، وأمّا الموسيقى فهي في التراث العقائدي الصيني اللقاء بين الأضداء بين الروح والمادة وبين العالم العلوي والعالم الأرضي[14].

فالحبيب الرمز المنشود الذي ينتمي إلى العالم العلوي حبيب / رمز بالروح ، فهي التي تحّرك في نفس الشابي الرغبة في الإندماج في (كون الحبيب) الذي يصعد به الشاعر إلى العالم العلوى، ويستعيد ذاته المنشطرة في العالم الأرضي ، لأن ((علاقته به ما هي إلا علاقته بنفسه وبكونه الخاصّ)) [15]،ولهذا كله لم يستنفد الشابي كل وسائل التعبير التي تبرز انتماء الحبيب إلى ذلك العالم المطلق الذي لا تحدّه حدود لأنه فوق ما يدركه العقل وما فوق ما تدركه الحواس:

أنتِ فوقَ الخيال، والشِّعرِ، والفنِّ *** وفوْقَ النُّهَى وفوقَ الحُدودِ[15]

والشاعر، يتقدس بروح الحبيب ويخلد:

أنتِ قُدْسي، ومَعبدي، وصباحي، *** وربيعي، ونَشْوَتِي، وَخُلودي[16]

فهي (ابنة النّور)، والشاعر وحده من تشبعت روحه بالنظر إلى جلال الله في رحلة التّأمل والاستغراق عن جمال الروح في الحبيب.

ففي فضاء الروح يتكشف التجلّى الإلهي في أبهى صوره، وتنكشف الحياة الروحية المثلى التي حجبت عن الشاعر منذ الأزل ! بقول في القصيدة نفسها:

عيشةً للجمال والفنّ والإلهام *** والطّهرْ، والسّنَى ، والسّجودِ

ولا عيشةَ النَّاسِكِ البُتولِ يُنَاجي الرّ *** بَّ في نشوَةِ الذَّهول الشديدِ يخفى ما في البيتين السابقين من طاقة تعبيرية، تزخر بدلالات صوفية عميقة، تجاوزت حدود التعبير عن حال شعورية، عاشها كثير من الشعراء العرب الرومانتيكيين تحولت إلى نزعة صوفية عند الشابي حتى أصبح الحبّ عنده منقذا له من مآسي الحياة ومادية الوجود:

أَنقِذِيني من الأَسى، فلقد أَمْسيـ *** أَمْسَيتُ لا أستطيعُ حملَ وجودي

فالحقل الدلالي للروح في شعر الشابي يصور في حقيقة الأمر صراعا بين ما ينشده الشابي من حبّ روحيّ وبين حب ماديّ ، آمن به الناس في المجتمع، والشابي تحدوه رغبة في الإنصهار في روح المحبوب، وكأنه يقول : (أنا الحبيب)، كما قال قيس قبله (أنا ليلى) وهذه العبارة (أنطق بها الصوفية قيساً))[16].

والفرق أن (ليلى قيس) وجود ما دي معلوم صنعه حبّ أرضي معلوم كما تروى كتلب التاريخ، و(حبيب الشابي) وجود روحي منشود تعلق وجدان الشابي به، ومع ذلك كلّه فـ: قيس مجنون بليلاه، والشابي مجنون بحبيب ، رسمته له مخيلته الرومانتيكية، ونحن جميعا مجنونون بحبّ قيس وحب الشابي لأنهما رسما للقارئ العربي والحديث والمعاصر وللقارئ غير العربيّ صورة جميلة للشاعر العربي القديم والحديث الذي يتغنّى بالروح ،كما أنّهما انتزع من مخيّلة ذلك القارئ الصورة النمطية للمرأة / الجسد التي (خدعوها بقولهم حسناء) وأقام لها الآخر[17] عيدا احتفل به العالم كل يوم الثامن من شهر مارس من كل عام .

وتتبدّى المرأة كما نسجها خيال الشابي في الأبيات السابقة كائنا روحيا، يملك القدرة على تشكيل كيان الشاعر، فهو يعبد فيها (جمال السماء) و(رقة ورد الربيع) و(طهر الثلوج) و(سحر المروج)، ويرى فيها قدرة الخالق على تصوير إشراقه المرأة الرمز فينحني لهذا الخالق الذي أبدع فصوّر وأحسن الخلق ،ولذلك اقتربت هذه المرأة من مرتبة التقديس ، فيقول في قصيدة (أراكِ)التي تجسد في حقيقة الأمر موقفا وجدانيا وفكرياّ وصوفيّاً من المرأة:

فأَعبُدُ فيكِ جمالَ السَّماءِ *** ورقَّةَ وردِ الرَّبيعِ الخضِلْ

وطُهْرَ الثّلوجِ وسِحْرَ المروج *** مُوَشَّحَةً بشُعاعِ الطّفَــلْ

إن الشابي لا يكتفي بالرؤية البصرية إلى المرأة، ولكنه يرحل بهذه الرؤية إلى عالم الروح الذي لا تدركه الحواس، وتصبح هذه الرؤية باعثا قويّاً على الخلق، تتجدّد فيها روح الشاعر ، وينطلق يقيم في خياله عالما مغلفا بالأحلام ((والمثالة شيء رائع، وأروع صافيها إيمانها بالمثلث الخالد ((الحق والخير والجمال ...ولقد عبد الشابي هذه القيم عبادة عميقة واسبغ عليها من السحر ما جعلها كل شيء في حياته وفنه ،واتخذها محراباً يتهجّد فيه...))[18] ، والمرأة حاضرة حضورا قويّا بدلالتها الروحية و رمزيتها :

أَراكِ فأَخْلَقُ خلْقاً جديداً *** كأنّيَ لمْ أَبْلُ حربَ الوُجُودْ

ويقول في القصيدة نفسها:

أَراكِ فتخفُقُ أَعصابُ قلبي *** وتهتزُّ مِثْلَ اهتزازِ الوَتَرْ

وتملأَني نشوةٌ لا تُحَدُّ *** كأَنّيَ أَصبحتُ فوقَ البَشَرْ

أَودُّ بروحي عِناقَ الوُجُودِ *** بما فيهِ مِنْ أَنْفُسٍ أَو شَجَرْ

فبالروح يعانق الشابي المطلق حيث تختفي ملامح الحياة الأرضية التي يأتي عليها الفناء والبلى ،وتبقى حياة الروح إلى الأبد :

غيرَ باقٍ في الكونِ إلا جمالُ *** الرُّوح غضًّا على الزَّمانِ الأَبيدِ

وظلت حياة الروح (اشواقا تائه) على حدّ تعبير الشابي نفسه في قصيدته (الأشواق التائهة) ، كما ظلت هذه الأشواق أمنية ، يرصع بها الشابي كثيرا من قصائده التي يصور فيها روحه الحالمة بوجود روحى ، فيقول -أيضا- في القصيدة نفسها:

.ليتني لم أزل كما كنت ضوءا *** شائعا في الوجود غسر سجين

إن الإقرار بهذه الأمنية بهذا التعبير المباشر الذي لا يحتمل التأويل يدل دلالة واضحة على أن الشابي كان كما أشرنا إلى ذلك في السابق يتصوّر الوجود تصوّرا روحيًّا من خلال رمزين كبيرين من رموز الشعر الرومانتيكي هما رمز المرأة ورمز الطبيعة .

2- رمزالطبيعة: (الغاب)

لعل ابرز ما يسترعي انتباه القارئ في شعر الشابي هذا الوعي الفني الحاد بأهمية إختيار اللفظ المناسب لعنوان القصيدة حي تتطابق دلالة اللفظ مع مدلوله ، ولذلك نظم قصيدة واختار لها عنوان (الغاب)، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وقد استبق الشابي ذلك بقصيدة أخرى هي قصيدة (من أغاني الرعاة)[19]، وفيها يتحدث عن زمنين نفسيين هما (زمان الغاب) و(زمان النّاس)، وبهما ترتسم الفروق الأساس التي تميّز(زمان الغاب)، والزمان الموضوعي (زمان النّاس):

فزمان الغاب طفل، لاعب، عذب جميل*** وزمان الناس شيخ، عابس الوجه، ثقيل

ومن خصائص (زمان الغاب) الذي تحدث عنه الشابي في البيت الأول أنه ينزه إلى التجريد و(زمان الغاب) قريب من زمن الطفولة فيها يعيش الإنسان صوفيّا حتى ولم يلبس صوفا ! !.

وفضاء الغاب، يسمو بعالم الحسّ إلى عالم المجردات فيحدث الإنسجام والتناسق بين ذات الشاعر الحالمة بحياة روحية مثلي وبين ذات الشاعر الحالمة بتجاوز الزمان الأرضي الضاغط .

فالشابي لا يريد أن يدرك من لذة الغاب الذي يعبر به إلى زمان غير زمان البشر، الغاب الذي يعبر به إلى زمان غير زمان البشر، إلاّ المعنى الروحّي الذي ينشده الأنبياء والاصفياء والأخيار.

ولذلك طلع علينا الغاب الذي يستوعب كلّ هذه المعاني بيتاً قريبا من (بيت الله) وقريبا من (بيت النبوّة) وقريبا من (بيت الحكمة) وقريبا من كلّ(بيتٍ)، يشير ظاهره إلى البعد صوفي ، حتى ولو كان هذا البيت بيت بومٍ[20] .

ولذلك جاء كلّه جاء هذان البيتان طلائع رئيسة، موغلة بالمعاني التي تنزع إلى التجريد:

بيْتٌ، بَنَتْه ليَ الحياةُ من الشذَى *** والظلّ، والأَضْواءِ، والأنغامِ

بيتٌ، من السِّحرِ الجميلِ، مشَيَدٌ *** للحبِّ، والأحلامِ، والالهامِ

إن الغاب / البيت التي تدّل عناصره الغاب التي تدل على معنى التجريد ،وتبدأ معاني التجريد تبرز بـ: كلمة (الأنغام) في آخر الشطر الثاني من البيت الأول ، ثم تولدت وتداعات معاني الأحلام، والإلهام، والحبّ أكثر هذه المعاني المجردة الموغلة في التجريد.

فالغاب / البيت شيّد ليحتضن ثلاثة عناصر رئيسة ودالة على التجريد.

والحبّ أكثر هذه العناصر دلالة على سمّو العواطف وصفاء القلب وطهر المشاعر ونبل الأحاسيس، وبهذه المعاني يتشبع الشاعر أبو القاسم الشابي بالجمال والقداسة، وينفلت من قبضة

(زمان الناس) ، فتحسّ روحه بالخلود يعانقها ،ويتمثل معنى الخلود في الإرتحال إلى حياة الروح واللازمان :

.روح أنّا مسحورة في عالم *** فوق الزمان ، الزاخر، الدّوام

وهذا الشعورالقويّ الذي عبّر عنه الشابي في البيت السابق يؤول إلى شعور صوفيّ بتلك الصور الساحرة التي تجلّى فيها الوجود الروحيّ للغاب ،في أبهى صوره، كما تجلّت فيه رغبة الشاعر في التسامي عن الكون الماديّ اعتبارا من اللحظة التي استغرقها الشاعر في تأملاّت صوفية ،وجد فيها السّكينة التي افتقدها في (دنيا النّاس) ، التي من خصائصها أنها مكان للحصار والتقيّد والإغتراب

يقول الشابي :

صُوَرٌ، من الفنِّ المُرَوِّعِ،أعجزت	وَحْيَ القريضِ وريشةَ الرسّامِ
وَلَكَمْ مَسَاءٍ، حَالِمٍمتوَشِّحٍ	بالظّلِ، والضّوءِ الحزينالدامي
قدْ سِرْتُ في غابي، كَفِكرٍ،هَائِمٍ	في نشوةِ الأحلاموالإلهامِ

شَعَري، وأفكاري، وكُلّمشاعري	منشورةٌ للنُّوروالأنسام

هكذا نجد أن الغاب البيت أصبح المكان المقدّس الذي يبدأ فيه الخلق الأوّل للشاعر ،ومن خصائص هذا الخلق هذه النشوة التي تعتري نفس الشعر بالميلاد ، تشبه الخلق الأوّل (لأدم عليه السلام)،كما يقول الشابي :

فإذا أنا في نَشْوَةٍ شعرّية	فَيَّاضةٍ بالوحيوالإلهامِ
ومشاعري في يقظةٍ مسحورة	.....
وَسْنَى كيقظةِ آدَمٍ لمَّاسَرَى	في جسمه، رُوحُ الحياةِالنّامي
وشَجَتْه مْوسيقى الوجودِ،وعانـ	ـقتُ أحلامَهُ، في رِقّةٍوسلامِ
ورأى الفَراديسَ، الأَنيقةَ،تنثني	في مُثْرَفِ الأزهاروالكمامِ
وأحسّ رُوحَ الكون تخفقُحوله	في الظِّلِّ، والأضواءِ،والأنسامِ

ولئن إتضح أن البعد الصوفي في شعر الشابي أصبح ظاهرة بارزة وفكرة ثابتة ، تتجاوز حدود الرؤيا العابرة ، إذ لم يكن الغرض الأساس عند الشابي أن يصور المظاهر الحسية الجميلة في الغاب ،ولكنه كان يصطفى من تلك المظاهر ما يوحى بالمعنى الروحي الذي يحاصر مشاعره ويعبر عن حال شعورية ذات بعد صوفي ، فيحسّ بالإنبعاث فتزداد جراء تلك الحال الشعورية رمزية الغاب وقداسته فيقف (مسحور المشاعر) ،وينشد ، في نشوة روحيّة:

فأهَبْتُ ـ مسحورَ المشاعر،حالماً	نشوانَ ـ بالقلب الكئيبالدّامي:
"المعبدُ الحيُّ المقدَّسُهاهنا	يا كاهنَ الأحزانوالآلامِ
فاخلعْ مُسُوحَ الحزنِ تحتظِلالِهِ	والبسْ رِدَاءَ الشِّعرِوالأَحلامِ
وارفعْ صَلاَتكَ للجمالِ،عَميقةً	مشبوبةً بحرارةالإلهامِ
واصدحْ بألحان الحياة ، جميلة	كجمال هذا العالمالبسَّامِ

وهكذا نلاحظ أن هذه النظرة التقديسية للغاب، تتكثف كلّما أحسّ الشابي أن الغاب لم يعد فضاءا من فضاءات الحياة التي ينتمي إليها النّاس، ولذلك جاء تصويره للغاب ، في الأبيات الآتية، تتجاور فيها الألفاظ المشحونة بالدلالات والمعاني السابقة، فتنزع عن الغاب كلّ ما يمكن أن يطعن في قداسته.

يقول الشابي:

في الغابِ، في الغابِ الحبيبِ،وإنَّه	حَرَمُ الطّبيعةِ والجمالِالسَّامي
طَهَّرْتُ فينار الجمالمشاعِري	ولقِيتُ في دنيا الخيالسَلامي
ونسيتُ دنيا النّاس، فهي سخافة	سَكْرَى من الأَوهامِوالآثامِ

فالشاعر، كما يمكنأن نستنبط ذلك من وسيلة التعبير التي استعملها في الابيات السابقة، موجود بوجوده الصوفي في الغاب ،والغاب تأهل لأن يكون وجوده صوفيا لأنّ الزمان في الغاب لا تحكمه الثوانيو الدقائق والساعات والأيّام والشهور والسنوات ولكنّه زمان يتدفق اعتبارا من اللحظة التي يستغرق فيها الشاعر في الإرتفاع بخياله، ويتنامى هذه الإستغراق كلّما أحسّ الشاعر باتساع الزمان وامتداده ،ولذلك أصبح الغاب حبيباً وحرم الطبيعة، ويترتب على ذلك إيمان قويّ بأنّ الزمان ، زمان الغاب ، يدفع إلى الحركة، والتجدّد المستمرّين اللذين لا يأتي عليهما البلى ،ومن مواصفات (زمان الغاب) أنّ له روحانية تتصف بالصفاء والطّهر والتجرّد من المادة :

في الغابِ سِحْرٌ، رائعٌمتجدِّدٌ	باقٍ على الأَيامِوالأَعْوامِ

ومن شأن هذه المواصفات التي يتصف بها الزمان في الغاب أن ينتقل بالشاعر وبالقارئ معاً من(دنيا النّاس) (السكرى من الأوهام والآثام) إلى عالم كلّ ما فيه يصدح بالحقّ، ففي هذا العالم الذي يتصف بالتجرّد:

رتل الرعد نشيدا	رددته الكائنات) [21]
مثل صوت الحق إن صاح	بأعماق الحياة) [22]
أو عَالَمٌ، ما زال يولَدُ فيفضا	الكونِ، بين غياهبِوسِدامِ

ولكن لا مناص من الإشارة في الاخير إلى أن الشاعر أبا القاسم الشابي أحسّ بوجوده الصوفيّ في الغاب، ولم يكن ذلك ليحدث لولا أنه تأهّل وتأهبّ لأن يرتفع بنفسه وروحه إلى عالم المعرفة الصوفية، بحسّه المرهف وثقافته الرومانتيكية وثقافته الإسلامية التي تحث الإنسان على السمو الروحي والإرتفاع بها من ضيق الدنيا إلى سعة الكون والآخرة ، فقد حاول الشابي أن يتخلّص من حصار الواقع((بالتسامي عن الكون المادي إلى المثل المطلق، لأنّ كل واقع تتجاوزه ، يوصلنا إلى واقع ، أغنى واسمى))[23] .

فقد آمن الشابي أن الحياة في الغاب عمر ثان، والغاب يكشف عن ألم مع النّاس ، والرومانسي "((هو ابن الأيمان القلبي... يؤمن بالأروح الغامضة المبثوثة في حنايا الطبيعة ...والمشاعر ذاتها هيالأصل في باب المعرفة وما دونها هو الفرع...))[24]، إذ أقبل الشابي على الغاب ، بعواطف خياشه، إقبالا صوفيا واعيّا كما أقبل على تصوير المرأة تصويرا روحيّا ، فلم يقل الشعر في أيّ موضوع كما قال في التعبير عن الحبّ والطبيعة لأنه لم يستطيع أن يعيش خارج زمان الحبّ والطبيعة، بهما سمت روحه، وقهر الإغتراب بهما، وبهما نشر القيم الجمالية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية، والحبّ والطبيعة، كشفا له أسرارا، في الكون، كثيرة،وبالحبّالروحي للمرأة و للطبيعة العذراء في الغاب، ارتحل الشابي بروحه إلى عالم المثل التي امن بها(الحبّ و الخير و الجمال) واكتحلت بصيرته بالنظر إلى جلال الله .فتبارك الله أحسن الخالقين.

الهوامش:

1- ولد الشابي سنة 1909م ،وتوفي سنة 1934م.
2- أنس داود ، التجديد في الشعر المهجري، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، 1980م ،ص83.
3- ديوان (أغاني الحياة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1999م، ص152.
4- نقلا عن، سميرة سلامى، الإغتراب في الشعر العباسي، القرن الرابع الهجري، دار الينابيع، دمشق ، سورية ، الطبعة الأولى 200م، ص262.
5- الديوان، قصيدة (الحبّ)، ص69.
6- الديوان، ص156.
7- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار الثقافة، دار العودة بيروت، لبنان، 1973م ،ص184.
8- ينظر المرجع نفسه، ص183.
9- وفيق سليطين، الزمن الأبدى، الشعر الصوفي، الزمان ، الفضاء، الرؤيا، دار نور للدراسات والنشر، اللاذقية، سورية ، الطبعة الأولى،1997 م، ص 205.
10- الديوان، ص221.
11- محمد غنيمي هلال ، المرجع السابق ص 172
12- فايز ترحينى، دراسات عربية، العددان 7-8-1988م، ص 124
13- قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ)،ص152 .
14- EliOde Mircea, le sacre et le profane, collections idées, p256
15- وفيق سليطين، المرجع السابق، ص11
16- عاطف جودت نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، دار الكندي للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان، الطبعة الأولى، 1978 م، ص134.
17- الآخر: هو الغرب ، الولايات المتحدة الأمريكية و أوربة.
18- خليفة محمد التليسى ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الرابعة 1978م، ص 94.
19- الديوان، ص183
20- طائر البوم رمز للحكمة في الثقافة الشعبية الالمانية.
21- قصيدة(الانشودة الرعب)،ص32
22- قصيدة(الغاب)،ص223
23- عن الدين إسماعين ، افن والإنسان، دار القلم بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، 1974،ص120.
24- إيليا الحاوى ، الرومنسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى، 1980، ص